

THE MAN WHO SAW ME

Ferdinando Frega

GILLETTE: الرجل الذي رأي

لم يحالفني الحظ يوماً بأن يكون لي معلّم.

في السنوات السبع والعشرين الأولى من عمري لم أكّد ألتقي إلا النساء. نساء من كل مزاج، ومن كل حساسية، ومن كل قامة فكرية وإنسانية. لعلّ الحياة لم تُرد إلا أن تذكّرني بحقيقة بديهية: أنا أيضاً ابن امرأة. وبإله من ابن.

ثم جاء عام 1992.

حملة سياسية قامت حول رجل أعمال من كورنسا يعمل في قطاع التعليم، سيصير لاحقاً نائباً في البرلمان الإيطالي خلافاً لكل التوقعات، غيرت مجرى أشياء كثيرة. لا بسبب السياسة في ذاتها، بل بسبب الأشخاص الذين أتيح لي أن ألتقيهم. هم الذين فتحوا الباب أمام الممكّات.

كنت مبتدئاً في عالم قائم على الانتماء. لم يكن أحد يفهم من أين أتيت.

كان السؤال هو نفسه دائماً.

«لماذا لم يكرّسه أحد؟ لماذا لم يأخذه أحد تحت جناحه؟»

كانوا يرون فيّ حجراً خاماً لم تعمل فيه يد بعد.

ومن جهات شتى جاءت الدعوات، ومحاولات التقرب، والعروض. كان مصدرها في الغالب أوساطاً لا تكاد تمتّ بصلة إلى الثقافة أو التاريخ أو النمو الداخلي الحقيقي. عوالم قوامها الخنوع والهيمنة وممارسة السلطة لا غير.

كنت أراقبها باحترام، لكن من بعيد.

كانت هناك غرف لم أشأ أن أدخلها.

ولم أدخلها.

ثم تلقيت ذات يوم مكالمة هاتفية.

كان المتصل جينو دومانيكو، معلّم حياة بحق.

أستاذ جامعي اختار أن يندر نفسه للتدريس، وكان يملك تلك الأنافة النادرة في التواصل، التي لا تُعلّم ولا تُقلّد. بعد لحظات قليلة من الحديث أدركت شيئاً بدا لي غير معقول آنذاك، وما زلت أوّمن به إلى اليوم:

لقد التقيت للتوّ الرجل الذي سأعهد إليه بجزء مهم من نمّوي.

دعاني إلى العشاء.

لم يكن ذلك تودّداً قط، ولا درساً رسمياً. كانت لجينو موهبة خاصة: يقرأ النفوس والعقول. وأغلب الظن أن نفسي كانت أمامه كتاباً مفتوحاً.

لم يشرح لي قط ما دوره، ولا من أي تقليد جاء. اكتفى بأن ترك لي جملة لم أنسها يوماً:

«يوماً ما، حين تراني حقاً، بالحبّ أو من دونها، ستعرف من أنا وأين أنا.»

حتى وأنا مبتدئ، فهمت معنى تلك الكلمات.

كنت رجلاً يطرق باب معبد طالباً النور. لا النور المادي، فلم يكن أيُّ منا يعمل في شركة كهرباء، بل ذلك النور الذي يتيح للمرء أن يرى نفسه بوضوح أكبر.

بادرة الترحيب الأولى جاءت من جينو.

ثم جاء تونينو.

كان من أرفع الشخصيات مقاماً داخل المؤسسة. راقبني وقتاً قصيراً فقط، ثم طرح السؤال نفسه الذي سبق أن سمعته مراراً.

«لماذا لم يره أحد من قبل؟ أين كان طوال هذه السنين؟»

كان الجواب بسيطاً.

«يعمل في كوزنسا. وُلد في ريدجو كالابريا. يعرف نصف الدنيا. الناس يحبّونه. وهو واحد منا. الفرق الوحيد أنه بعد المعموديته الكاثوليكية لم ينل أي تكريس آخر.»

كان ذلك الجواب كافياً.

أُذن لي بأن أبدأ، على الوجه الصحيح وفي الوقت الصحيح، الطريق المخصّص لأبناء الأرملة.

منذ تلك اللحظة لم يمسك جينو بيدي قط.

لم يكن بحاجة إلى ذلك.

كانت تكفي نظرتَه وِضع كلمات. معه كان الصمت يتّسع لتعليم لا يتّسع له كتاب من خمسمئة صفحة.

ثم حلّ ذلك اليوم.

وجدته هناك بين المقاعد.

صامتاً. يكاد يكون صارماً.

كان المكان يقتضي هيئة خاصة، في الباطن أولاً، ثم في الظاهر.

في استراحة قصيرة في الحيز الخارجي لحجرة التأمل، قاعة الخطى الضائعة، وجدنا أنفسنا واقفين جنباً إلى جنب. اقترب مني من دون أن يقول الكثير. ومع ذلك أحسّ كلانا في تلك اللحظة بالشعور نفسه.

شعور لم يخبُ قط.

بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، ما زال هنا.

ربما لأن بعض اللقاءات لا تنتمي إلى الماضي.

إنها تواصل تكريسنا كلها تذكريها.

TFA

فرديناندو فريغا

ملحوظة.

بعد أن كتبت هذه القصة، أحسست كأن قطعة أصيلة من الفسيفساء ناقصة. كفتني بضع ساعات من التأمل في الليل لأفهم ما هي.

في ذلك الصيف كان جينويقيم في فيلته على البحر. دعاني مراراً إلى زيارته، وذات مساء وجدت أخيراً الفرصة لأطرق بابه.

استقبلني بمودة لم أنسها قط، وفي تلك المناسبة تعرّفت إلى تيريزا، امرأة حياته.

كانت شابة، أنيقة، لطيفة بطبعها. لم تكن من ذلك الصنف من الناس الذي يسعى إلى إبهار الآخرين. كانت دقائق قليلة تكفي ليلمس المرء ذكاءً متقدماً تصحبه قدرة نادرة على فهم من يقف أمامها.

كانت تعمل في القطاع المصرفي وتشغل منصباً ذا مسؤولية. وفي السنوات التالية سمعت تعليقات متشابهة إلى حدّ لافت من أصدقاء وزملاء عرفوها عن قرب: كانت تيريزا تملك حدساً غير عادي وقدرة استثنائية على أن تبين، على الفور تقريباً، مدى جدارة الناس بالثقة.

نشأ بيننا انسجام طبيعي.

كان من السهل أن نفهم أن كلينا يحبّ الشخص نفسه حباً عميقاً. بطريقتين مختلفتين بطبيعة الحال، لكن بالمودة العميقة ذاتها.

لقد وجدت أختاً في القلب أرهاها. لم تعبّر هي قط عن مثل هذا بالكلمات، لكنني كثيراً ما شعرت بأنها تبينّت شيئاً شبيهاً.

غير أن ذلك اللقاء أحدث أثراً أهمّ من ذلك.

لقد أكّد قناعة لم يكذبها الزمن قط: المعلّم الجيد يتكشف في أغلب الأحيان عبر عيني المرأة التي تسير إلى جانبه. هي لا تحلّ محلّ الأم، ولا تلتبس بها. إنها تُكمل الصورة الإنسانية للرجل.

ومعلّمي كان واحداً من هؤلاء الرجال.

مع أطيب التحيات،

فرديناندو فريغا